



الابتلاء سنة إلهية ماضية في الناس، لا تتبدل ولا تتعين، وقد نبهنا القرآن الكريم لهذه السنة الإلهية كثيراً لنفهم حقيقة الدنيا التي نعيش فيها، فلا تخيلها خالية من الأكدر والأحزان والابتلاءات، قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوْكُمْ أَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} الملك/2 ، وقال تعالى : {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفَتَّنُونَ \* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} العنكبوت/2-3 .

وقد ورد في الخبر: (إنَّ هذِه الدِّينَى دَارَ الْتِوَاءَ لَا دَارَ اسْتِوَاءَ، وَمَنْزِلَ تَرَحِّ لَا مَنْزِلَ فَرَحِّ، فَمَنْ عَرَفَهَا لَمْ يَفْرَحْ لِرَخَاءَ، وَلَمْ يَحْزُنْ لِشَقَاءَ، جَعَلَهَا اللَّهُ دَارَ بُلُوى، وَجَعَلَ الْآخِرَةَ دَارَ عُقُبَى، فَجَعَلَ بَلَاءَ الدِّينَى لِعَطَاءَ الْآخِرَةِ سَبَبًا، وَجَعَلَ عَطَاءَ الْآخِرَةِ مِنْ بُلُوى الدِّينَى عِوَضًا، فَيَأْخُذُ لِيُعْطِي وَيَبْتَلِي لِيُجْزِي) أخرجه дилиمي عن ابن عمر.

لقد عاش العالم العربي الإسلامي فترة من الأمان والاطمئنان، ركن فيها كثير من الناس إلى الدنيا وزخرفها، ونسوا الآخرة وحقوقها، ونأى بهم المال والمتعة عن فهم الدنيا على حقيقتها، فظنوا أنها قد صفت لهم، وتجاهلوا المادة التي تكونت منها الدنيا، من الابتلاء والشدائد والأحزان.

والحقيقة أن الدنيا برخائها وشقائها ابتلاء وامتحان، يفوز فيه المؤمن الشاكر على الرخاء الصابر على البلاء، ويختسر فيه الجاحد للنعمنة المتألف في المحنـة، فـالإسلام في الحقيقة قائم على الشكر والصبر كما نعلم، قال -صلى الله عليه وسلم-: (عَجَباً لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلُّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لَأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ) مسلم/7692

فمن الحقائق التي لا بد أن يعلمه المسلمين، أن الله لا يقضى لخلقـه إلاـ الخـير، وإن بدت في الظاهر والصورة شـرـ، فليس عند الله شـرـ محضـ، وإنـما قد يكونـ الشـرـ لـخـيرـ يـعقبـهـ ويـخـلفـهـ، قالـ تعالىـ: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} البقرة/216

وحتـىـ لا يـتـسلـلـ الـظـنـ السـيـءـ بـالـلـهـ إـلـىـ قـلـوبـ بـعـضـ الـمـسـلـمـينـ، وـحتـىـ لا يـشـكـكـواـ فـيـ مـحـبـتـهـ وـلـطـفـهـ بـخـلـقـهـ وـعـبـادـهـ، كانـ لاـ بدـ أنـ يـتـعـرـفـ الـمـسـلـمـ عـلـىـ فـوـائـدـ الـابـتـلـاءـاتـ، حتـىـ يـعـلـمـ كـلـ وـاحـدـ مـنـاـ عـظـيمـ فـضـلـ اللـهـ تـعـالـىـ وـرـحـمـتـهـ بـهـ، وـيوـقـنـ بـأنـ يـعـلـمـواـ أـنـ الـمـنـحةـ

أصحابها الممنحة، ومن هذه الفوائد والمنح التي تصاحب المحن وتعقبها:

1- الشوق والحنين إلى الجنة، من خلال كثرة الابتلاءات والأحزان في هذه الدنيا، التي لا يمكن إلا أن يذوق الإنسان المسلم بعضاً من كدرها وألمها، مما يزيده حباً وتعلقاً بالآخرة التي لا كدر فيها ولا نصبٌ ويرغبه فيها.

وأنى لMuslim أن يشتق إلى الجنة وهو يتقلب في نعيم الدنيا، ولم ينق بعض موارتها وكدرها، وهذا ليس يأساً من الحياة أو تمنينا للموت لشدة أوكرب، وإنما شوقاً إلى دار ليس فيها ذلك العنت الذي في الدنيا.

2- الابتلاء يكشف معانٍ الرجال، ويميز الصنوف، وبهتك الستر عن المنافقين، ويظهر إيمان المؤمنين، قال تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} آل عمران/179

يقول سيد قطب تعليقاً على هذه الآية : ويقطع النص القرآني بأنه ليس من شأن الله سبحانه وليس من مقتضى الوهبيته ، وليس من فعل سنته ، أن يدع الصفة المسلم مختلطاً غير مميز ، يتوارى المنافقون فيه وراء دعوى الإيمان ، ومظاهر الإسلام ، بينما قلوبهم خاوية من بشاشة الإيمان ، ومن روح الإسلام ؛ فقد أخرج الله الأمة المسلمة لتؤدي دوراً كونياً كبيراً ، وهذا الدور الكبير يقتضي التجرد والصفاء والتميز والتماسك ، ويقتضي ألا يكون في الصفة خلل ، ولا في بنائه دخل وكل هذا يقتضي أن يصهر الصفة ليخرج منه الخبث ، وأن يضغط لتهاوى البنات الضعيفة.

3- الابتلاء يكفر الذنوب والمعاصي ، ويكون بمثابة الشدة التي توقف الغافل وتتباه الناس ، وتعيد البعيد عن الله إلى رحابه وفسيح عفوه ومغفرته ، جاء في الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري وعنه أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

{مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍ حَتَّىٰ الشَّوْكَةَ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ}

البخاري / 5641

وكم كان للشدة والابتلاء الذي نزل بأهل الشام وغيرها من بلاد الإسلام في الآونة الأخيرة ، من أثر كبير في عودة الكثير من الشاردين عن الله تعالى إلى رحابه ، وتنبيه الكثير من الشباب الضائعين إلى عظمة الإسلام وشعائره، فحققت تلك الشدائدين والابتلاءات في شباب الأمة ورجالها ونساءها، ما لم تتحققه ماكينة الدعوة الإسلامية البشرية على مدى عقود من الزمان خلت فيها.

4- الابتلاءات تظهر عجز الإنسان وافتقاره دائماً لخالقه وموله، وهي بهذا المعنى تزيد من قوة عقيدة المسلم، وترفع من درجة يقينه وتوكله على ربِّه، وهو أمر في غاية الأهمية .

فكم من الأمراض أعجزت الأطباء وحيرتهم، وكم من الأزمات والمعضلات أعادت المسلمين إلى التوكل الخالص على الله تعالى، بعد أن كانوا متعلقين بالأغيار، ممن لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً.

ولعل ما يجري في العالم العربي والإسلامي الآن، خير برهان على ذلك، فالابتلاءات تنزل تنرا على المسلمين، لتزيل عنهم كل اعتماد أو توكل على غير الله تعالى، ولتطهر نفوسهم من التعليق الشديد بالأسباب المادية التي قصروا في الأصل في الأخذ بها، فكانت هذه الابتلاءات كشفاً للتقصير في كلام الجانبين، الأخذ بالأسباب وإعداد العدة قدر الاستطاعة، ثم التوكل والاعتماد على القائم على الله تعالى.

أيها القارئ الكريم الذي يرى ما ينزل بال المسلمين من شدة وكرب وبلاء كل يوم، لا تيأسن أبداً من رحمة الله تعالى، ولا تظنن بالله ظن السوء أبداً، فما بعد المحنـة إلا المـنـحة، وما بعد العـسـر إلا يـسـرـين، والله أصدق القائلين: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا \* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} الشرح / 6-5 .

المصادر: